

مقاومة الأمير عبد القادر (1832-1847)

من هو الأمير عبد القادر؟ و ماهي ظروف مبايعته بالإمارة؟ و فيم تمثلت الدوافع الحقيقية لمقاومته؟ و ماهي أبرز الانجازات التي حققتها مقاومته، و الانعكاسات المترتبة عنها؟

1-التعريف بالأمير عبد القادر:

هو عبد القادر بن محي الدين، من مواليد عام 1808 بقرية القيطنة بسهل غريس إلى الغرب من معسكر، تلقى تعليمه الديني و اللغوي على يد والده الشيخ محي الدين، ثم واصل تعليمه بآرزيو، ثم وهران. وحفظ القرآن الكريم كاملا في سن مبكرة، و تزوج في السن الخامسة عشر بابنة عمه ((لاله خديجة)) التي عرف عنها الأخلاق الفاضلة، وفي سنة 1826 رافق والده إلى الحج، ثم عاد للجزائر سنة 1828، و اهتم بالعبادات و التعلم مما ساعده على التفقه في الدين و الفلسفة و الآداب. كما تميز "بالشجاعة الفائقة و بالفروسية الرائعة و الاقدام المثالي"، هذه الصفات أهلتة لأن يكون أميرا و قائدا للمقاومة الوطنية ابتداء من سنة 1832، فكيف تم ذلك؟

2-ظروف مبايعته بالإمارة:

بعد استسلام باي وهران ((حسن)) للغزاة الفرنسيين و تسليم مفاتيح المدينة لقائدهم "بوي" في 7 جانفي 1831 ، و فراره إلى الإسكندرية ليستقر بها، أصبح بذلك إقليم وهران يعيش في فوضى "يواجه المحتلين بدون قيادة و لا إدارة و لا جيش"، و قد استاء أهالي الإقليم من موقف باي وهران، الذي اعتبروه خيانة في حق الوطن، و تطلعوا للبحث عن رجل تتوفر فيه شروط قيادة المقاومة، فوقع اختيارهم في بادئ الأمر على الشيخ محي الدين والد الأمير عبد القادر، من قبيلة هاشم بمعسكر، و شيخ الطريقة القادرية، الذي اضطلع بأعباء الكفاح و تمكن من إلحاق هزائم نكراء بالقوات الفرنسية في معارك

متعددة، أبرزها: معركة خنق النطاح الأولى في 4 ماي 1832، و معركة خنق النطاح الثانية في 4 جوان من نفس السنة، دفاعا عن وهران، شارك فيها إلى جانبه ابنه عبد القادر، أظهر من خلالها مواهبه القيادية و شجاعته، و نتيجة لذلك ولاه الأعيان و زعماء القبائل على الإمارة، بعدما رفضها والده لكبر سنه، و اقترحها على ابنه لتوفره على شروط المسؤولية
تم مبايعة عبد القادر بن محي الدين أميرا وقائدا للمقاومة الجزائرية من خلال البيعة الأولى (الخاصة) في 3 رجب 1248 هـ الموافق لـ: 27 نوفمبر 1832م، تحت شجرة الدردارة الواقعة بوادي فروجة بسهل غريس، أما البيعة الثانية (العامة) فتمت بقصر الإمارة بمعسكر في 13 رمضان 1248 هـ الموافق لـ: 04 فيفري 1833م.

3-مقاومته العسكرية و مراحل تطورها:

أ-إنطلاق المقاومة و أبرز انجازاتها(1832-1837):

سعى الأمير عبد القادر إلى تنظيم دولته و اتخذ معسكر عاصمة لها، و عمل أيضا على تعبئة السكان للمقاومة ضد الغزاة، و تمكن خلال هذه الفترة من تحقيق انتصارات، على رأسها الاستيلاء على ميناء آرزيو التجاري، و مد نفوذه إلى تلمسان و مليانة و المدية، و محاصرة القوات الفرنسية بوهران و آرزيو و مستغانم، أجبرت القائد الفرنسي الجنرال الفرنسي دي ميشال على مهادنة الأمير من خلال إبرامه معاهدة دي ميشال مع الأمير في 26 فيفري 1834، نصت على وقف القتال بين الطرفين، و حرية التجارة، و افتداء الأسرى، و احترام الدين الإسلامي، و عادات و تقاليد الجزائريين، و تبادل التمثيل القنصلي بين الطرفين، كما اعترفت المعاهدة بسلطة الأمير على مليانة و تلمسان و المدية.

أثارت المكاسب التي حققها الأمير من خلال هذه المعاهدة، مخاوف فرنسا، التي لم تتوان في نقض المعاهدة عن طريق الجنرال تريزيل، الذي وفر الحماية لبعض القبائل المتمردة على سلطة الأمير كالدوائر والزماله رافضا طلب الأمير بإرجاعها إلى سلطته، عندئذ تجدد القتال بين الطرفين وانتصر الأمير على فرنسا في معركة السيق في 26 جوان 1835، ومعركة

المقطع (شرق أرزيو) في 27 جوان 1835م، و معركة وادي سكاك (قرب تلمسان) في جويلية 1836. وأمام اتساع المقاومة و انتصاراتها،دفعت بالقائد الجنرال بيجو إلى مفاوضة الأمير و التوقيع على معاهدة التافنة مع هذا الأخير في 30 ماي 1937 م ،نصت على اعتراف فرنسا بسلطة الأمير على مناطق واسعة من البلاد باستثناء المناطق و المدن الساحلية، كما أكدت المعاهدة على حرية التجارة، و تبادل القناصل و المجرمين بين الطرفين،و اعتبرت الأمير المرجع الوحيد في الجزائر للتعامل مع العدو.

استغل الأمير هذه المعاهدة في مواصلة إصلاح إدارته، و تنظيم حكومته، و كل ما يخص شؤون دولته و جيشه و القضاء على خصومه من الجزائريين المعارضين له، بينما استغلتها فرنسا في التفرغ للقضاء على مقاومة أحمد باي في الشرق الجزائري.

ب: تنظيم دولة الأمير عبد القادر(1837-1839)

من الناحية الإدارية قسم الأمير دولته إلى ثمانية أقاليم إدارية ،و جعل على رأس كل إقليم خليفة ، على النحو الآتي:

- 1- تلمسان: محمد البو حميدي الولهاسي
- 2- معسكر: محمد بن فريجة المهاجي، ثم مصطفى بن أحمد التهامي.
- 3- مليانة: محي الدين بن علال القليعي، ثم محمد بن علال.
- 4- التيطري(المدية): مصطفى بن محي الدين، ثم بمحمد البركاني.
- 5- مجانة(سطيف): محمد بن عبد السلام المقراني، ثم محمد بن الخروبي، ثم محمد بن عمر العيساوي.
- 6- برج حمزة (البويرة و جرجرة): أحمد الطيب بن سالم
- 7- الزيان (بسكرة): فرحات بن سعيد ،ثم الحسين بن عزوز، ثم محمد الصغير بن عبد الرحمان بن احمد بن الحاج
- 8- الصحراء الغربية(الأغواط): الحاج العربي بن عيسى ثم قدور بن عبد الباقي.

وقسم كل إقليم الى نواحي على رأس كل ناحية اغا، كما قسمت كل ناحية إلى مجموعة أعراش أو قبائل على رأس كل منها قائد، و كان على رأس كل فرقة من القبيلة شيخ. و تمثلت التنظيمات الإدارية الأخرى لدولة الأمير في تشكيل مجلس وزاري مصغر(الذي يعرف بالديوان الأميري ترأسه الأمير، ضم العديد من الوزارات(النظارات) كالداخلية، و الخارجية، و المالية، و الخزينة الخاصة، و الحربية و الدفاع،و الأوقاف و العشور و الزكاة، و كتابة الديوان الأميري.

و شكل أيضا مجلسا للشورى الذي ضم حوالي أحد عشر عالما،أستعان بهم الأمير في الأخذ بمشورتهم في الكثير من المسائل القضائية و المالية و القضايا المتعلقة بالحرب و السلم ، كما ضبط ميزانية الدولة،و سك عملة وطنية سميت ب:المحمدية،و اهتم بالتجارة،و شجع التعليم،و نظم الجيش و أسس الحصون و مصانع للأسلحة و الذخيرة،و أقر راية رسمية للدولة التي حملت الشعار الأتي " نصر من الله فتح قريب ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين ".و أقام علاقات دبلوماسية مع دول، كالمغرب الأقصى ،وتونس ،وإنجلترا قصد الحصول على تأييدها ومساعدتها ضد فرنسا. وبعد استيلاء العدو على العاصمة الأولى معسكر، ثم الثانية تاقدمت سنة 1841،أنشأ الأمير عاصمة متنقلة عرفت باسم(الزمالة).

ج:تراجع المقاومة و نهايتها(1837-1847)

لم تستمر معاهدة التافنة طويلا،إذ سرعانما أقدم الفرنسيون على نقضها،بعدما قامت قواتهم الغازية بقيادة الماريشال((فالي)) "بعبور الطريق البري بين قسنطينة والجزائر على مضائق البيان"،و هي المنطقة المحسوبة على دولة الأمير عبد القادر،هذا الأخير الذي لم يتقبل هذا الموقف ،و من ثم تجددت الحرب بين الطرفين في سنة 1839،و تمكنت قوات الأمير من تنفيذ هجومات ناجحة استهدفت الحاميات الفرنسية و المستوطنات الأوروبية في سهل متيجة خلال شهر ديسمبر1840.

اشتدت الحرب على نطاق واسع خلال عهد الحاكم الجديد للجزائر بييجو(1841-1847)،الذي سلك سياسة الأرض المحروقة و إرهاب السكان للحيلولة دون تدعيمهم لمقاومة الأمير والالنفاف حولها،و تدريجيا بدأت كفة النصر تميل للعدو، سيما بعدما تمكن من الاستيلاء على عاصمة الأمير تاقدمت 1841، ثم سقطت العاصمة المتنقلة الزمالة في 16 ماي 1843،و في ظل الحصار الذي أصبح يعاني منه الأمير و أنصاره، اضطر إلى الاتجاه إلى المغرب، لكن السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان اضطر إلى التخلي عن مناصرة الأمير و دعمه، تحت التهديد الفرنسي له، لذلك عاد الأمير من جديد إلى الجزائر سنة 1845 محاولا تنظيم المقاومة، لكن بدون جدوى، و باشتداد الحصار عليه، راسل القائد الفرنسي لامورسيير في 21 ديسمبر 1847،طلب منه الأمان و الترخيص له بالتوجه إلى الإسكندرية أو عكا بفلسطين،و قد تعهد القائد الفرنسي بالاستجابة لطلب الأمير، و على ضوء ذلك قدم هذا الأخير نفسه للفرنسيين سنة 1847،لكن هؤلاء تنكروا لتعهداتهم،بعدها نقلوا الأمير إلى فرنسا و سجنوه ،و لم يطلق سراحه إلا في سنة 1852،ثم انتقل بعد ذلك إلى دمشق، حيث استقر بها حتى وافته المنية سنة 1883